دقيقة فقط

محمد بن عبدالله الفريح

كاتب ومفكر

@ malfriah

كنت أقف في دوري على شباك التذاكر؛ لأشتري بطاقة سفر في الحافلة إلى مدينة تبعد نحو 330 كم، وكانت أمامي سيدة ستينية قد وصلت إلى شباك التذاكر، وطال حديثها مع الموظفة التي قالت لها في النهاية: الناس ينتظرون، أرجوكِ تنحّي جانبًا، فابتعدت المرأة خطوة واحدة لتفسح لي المجال، وقبل أن أشتري بطاقتي سألت الموظفة عن المشكلة؟ فقالت لي: إن هذه المرأة معها ثمن بطاقة السفر، وليس معها يورو قيمة بطاقة دخول المحطة، وتريد أن تنتظر الحافلة خارج المحطة، وهذا ممنوع، فقلتُ لها: هذا يورو، وأعطيها البطاقة. وتراجعتُ قليلًا، وأعطيتُ السيدة مجالًا لتعود إلى دورها بعد أن نادتها الموظفة مجددًا.

اشترت السيدة بطاقتها، ووقفت جانبًا، وكأنها تنتظرني، فتوقعت أنها تريد أن تشكرني، ولكنها لم تفعل، بل انتظرتْ لتطمئن إلى أنني اشتريت بطاقتي، وسأتوجه إلى ساحة الانطلاق، فقالت لي بصيغة الأمر: احمل هذه، وأشارت إلى حقيبتها.

كان الأمر غريبًا جدًّا بالنسبة إلى هؤلاء الناس الذين يتعاملون بلباقة ليس لها مثيل، دون تفكير حملت لها حقيبتها، واتجهنا معًا إلى الحافلة، ومن الطبيعي أن يكون مقعدي بجانبها؛ لأنها كانت قبلي تمامًا في الدور.

حاولت أن أجلس جهة النافذة؛ لأستمتع بمنظر تساقط الثلج الذي بدأ منذ ساعة، وأقسم بأن يمحو جميع ألوان الطبيعة معلنًا بصمته الشديدة: أنا الذي آتي لكم بالخير، وأنا من يحقّ له السيادة الآن! لكن السيدة منعتني، وجلستْ جهة النافذة دون أن تتطق بحرف، فرحتُ أنظر أمامي، ولا أعيرها اهتمامًا، إلى أن التفتتْ إلي تنظر في وجهي، وتحدق فيه، وطالت التفاتتها دون أن تتطق ببنت شفة، وأنا أنظر أمامي، حتى إنني بدأت أتضايق من نظراتها التي لا أراها، لكنني أشعر بها، فالتفتُّ إليها.

عندها تبسمتْ، قائلة: كنت أختبر مدى صبرك وتحملك.

- صبري على ماذا؟

- على قلة ذوقي. أعرفُ تمامًا فيما كنتَ تفكر.

- لا أظنك تعرفين، وليس مهمًّا أن تعرفي.

- حسنًا، سأقول لك لاحقًا، لكن بالي مشغول كيف سأردّ لك الدين.

- الأمر لا يستحق، لا تشغلي بالك.

- عندي حاجة سأبيعها الآن، وسأردّ لك اليورو، فهل تشتريها أم أعرضها على غيرك؟

- هل تريدين أن أشتريها قبل أن أعرف ما هي؟

- إنها حكمة، أعطني يورو واحدًا؛ لأعطيك الحكمة.

- وهل ستعيدين لي اليورو إن لم تعجبني الحكمة؟

- لا، فالكلام بعد أن تسمعه لا أستطيع استرجاعه، ثم إن اليورو الواحد يلزمني؛ لأنني أريد أن أردّ به دَيني.

أخرجتُ اليورو من جيبي، ووضعته في يدها، وأنا أنظر إلى تضاريس وجهها. مازالت عيناها جميلتين تلمعان كبريق عيني شابة في مقتبل العمر، وأنفها الدقيق مع عينيها يخبران عن ذكاء ثعلبي. مظهرها يدلّ على أنها سيدة متعلمة، لكنني لن أسألها عن شيء، أنا على يقين أنها ستحدثني عن نفسها، فرحلتنا مازالت في بدايتها.

أغلقت أصابعها على هذه القطعة النقدية التي فرحت بها، كما يفرح الأطفال، عندما نعطيهم بعض النقود، وقالت: أنا الآن متقاعدة، كنت أعمل مدرّسة لمادة الفلسفة، جئت من مدينتي لأرافق إحدى صديقاتي إلى المطار. أنفقتُ كل ما كان معي، وتركتُ ما يكفي لأعود إلى بيتي، ولكن سائق التاكسي أحرجني، وأخذ مني يورو زيادة، فقلت في نفسي: سأنتظر الحافلة خارج المحطة، ولم أكن أدري أنه ممنوع. أحببتُ أن أشكرك بطريقة أخرى، بعدما رأيت شهامتك، حيث دفعت عني دون أن أطلب منك، الموضوع ليس ماديًّا. ستقول لي: إن المبلغ بسيط، سأقول لك: أنت سارعت بفعل الخير دونما تفكير.

قاطعتُ المرأة مبتسمًا: أتوقع أنك ستحكين لي قصة حياتك، لكن أين البضاعة التي اشتريتُها منكِ؟ أين الحكمة؟

- «فقط دقيقة».

- سأنتظر دقيقة.

- لا، لا، لا تنتظر. «فقط دقيقة»... هذه هي الحكمة.

- ما فهمت شيئًا.

- لعلك تعتقد أنك تعرضتَ لعملية احتيال؟

- ربما.

- سأشرح لك: «فقط دقيقة»، لا تنسَ هذه الكلمة.

«فقط دقيقة»... حكمة أعرضها للبيع، فمن يشتريها مني في زمن نهدر فيه كثيرًا وكثيرًا من الساعات دون فائدة؟»

في كل أمر تريد أن تتخذ فيه قرارًا، عندما تفكر فيه، وعندما تصل إلى لحظة اتخاذ القرار أعطِ نفسك دقيقة إضافية، ستين ثانية. هل تعلم كم من المعلومات يستطيع دماغك أن يعالجها خلال ستين ثانية؟ في هذه الدقيقة التي ستمنحها لنفسك قبل إصدار قرارك قد تتغير أمور كثيرة، ولكن بشرط.

- وما الشرط؟

- أن تتجرد عن نفسك، وتُفرغ في دماغك، وفي قلبك جميع القيم الإنسانية والمثل الأخلاقية دفعة واحدة، وتعالجها معالجة موضوعية، ودون تحيز، فمثلًا: إن كنت قد قررت أنك صاحب حق، وأن الآخر قد ظلمك، فخلال هذه الدقيقة، وعندما تتجرد عن نفسك ربما تكتشف أن الطرف الآخر لديه حق أيضًا، أو جزء منه، وعندها قد تغير قرارك تجاهه. إن كنت نويت أن تعاقب شخصًا ما فإنك خلال هذه الدقيقة بإمكانك أن تجد له عذرًا، فتخفف عنه العقوبة، أو تمتنع عن معاقبته وتسامحه نهائيًّا. دقيقة واحدة بإمكانها أن تجعلك تعدل عن اتخاذ خطوة مصيرية في حياتك، لطالما اعتقدت أنها هي الخطوة السليمة، في حين أنها قد تكون كارثية. دقيقة واحدة ربما تجعلك أكثر تمسكًا بإنسانيتك وأكثر بعدًا عن هواك. دقيقة واحدة قد تغير مجرى حياتك وحياة غيرك، وإن كنت من المسؤولين فإنها قد تغيّر مجرى حياة قوم بأكملهم، هل تعلم أن كل ما شرحته لك عن الدقيقة الواحدة لم يستغرق أكثر من دقيقة واحدة؟

- صحيح، وأنا قبلتُ برحابة صدر هذه الصفقة وحلال عليكِ اليورو.

- تفضل، أنا الآن أردّ لك الدين، وأعيد لك ما دفعته عني عند شباك التذاكر. والآن أشكرك كل الشكر على ما فعلته لأجلي.

أعطتني اليورو، فتبسمتُ في وجهها، واستغرقت ابتسامتي أكثر من دقيقة، لأنتبه إلى نفسي، وهي تأخذ رأسي بيدها، وتقبله قائلة: هل تعلّم أنه كان بالإمكان أن أنتظر ساعات دون حلّ لمشكلتي، فالآخرون لم يكونوا ليدروا ما مشكلتي، وأنا ما كنتُ لأستطيع أن أطلب يورو من أحد.

- حسنًا، وماذا ستبيعيني لو أعطيتك مئة يورو؟

- سأعتبره مهرًا، وسأقبلك زوجًا.

علتْ ضحكتُنا في الحافلة، وأنا أُمثّلُ أنني أريد النهوض ومغادرة مقعدي، وهي تمسك بيدي قائلة: اجلس لا تخف، فأنا متزوجة، وأنا أقول لها: «فقط دقيقة»، «فقط دقيقة»....

لم أتوقع أن الزمن سيمضي بسرعة، كانت هذه الرحلة من أكثر رحلاتي سعادة، حتى إنني شعرت بنوع من الحزن، حين غادرتِ الحافلة، عندما وصلنا إلى مدينتها في منتصف الطريق تقريبًا.

قبل ربع ساعة من وصولها حاولتْ أن تتصل من جوالها بابنها؛ كي يأتي إلى المحطة ليأخذها، ثم التفتتْ إليّ قائلة: على ما يبدو أنه ليس عندي رصيد، فأعطيتها جوالي لتتصل. المفاجأة أنني بعد مغادرتها للحافلة بربع ساعة تقريبًا تسلّمت رسالتين على الجوال: الأولى تفيد أن هناك من دفع لي رصيدًا بمبلغ يزيد على ١٠ يوروهات، والثانية منها تقول فيها: كان عندي رصيد في هاتفي، لكنني احتلتُ عليك لأعرف رقم هاتفك، فأجزيكَ على حسن فعلتك. إن شئت احتفظ برقمي، وإن زرت مدينتي فاعلم أن لك فيها أمًّا ستستقبلك، فرددتُ عليها برسالة قلت فيها: عندما نظرتُ إلى عينيك خطر ببالي أنهما عينان ثعلبيتان، لكنني لم أتجرأ أن أقول ذلك لك، أتمنى أن تجمعنا الأيام ثانية، أشكركِ على الحكمة، واعلمي أنني سأبيعها بمبلغ أكبر بكثير.

«فقط دقيقة»، لا تنسَ هذه الكلمة. في كل أمر تريد أن تتخذ فيه قرارًا، عندما تفكر فيه، وعندما تصل إلى لحظة اتخاذ القرار أعطِ نفسك دقيقة إضافية، ستين ثانية. هل تعلم كم من المعلومات يستطيع دماغك أن يعالجها خلال ستين ثانية؟ في هذه الدقيقة التي ستمنحها لنفسك قبل إصدار قرارك قد تتغير أمور كثيرة»

حركة الترجمة العربية في العصور الوسطى: عوامل بروزها و انحدارها

عمر عثمان جبق

محاضر في قسم اللغة الإنجليزية بكلية المعلمين في جامعة الملك سعود

﴿كان أثر حركة الترجمة إلى اللغة العربية في العصور الوسطى بالغاً في نقل مختلف العلوم الإنسانية وحفظها من الزوال. ونشطت هذه الحركة و استمرت حوالي قرنين متواصلين من الزمن نظراً لحثّ مصادر التشريع الإسلامي الرئيسة – القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة – على طلب العلم و بذل الغالي والرخيص في سبيل بلوغه. وجاء تشجيع الخلفاء العباسيين في تلك الحقبة، وتعطش العلماء والباحثين و المترجمين، جاء مكمّلا لهذه الحركة التي أبدعت في التراجم والنقل إلى اللغة العربية﴾

ليس هنالك أدنى شكّ من أنّ المعرفة والعلوم على اختلافهما هما غاية تسعى إلى اكتسابها كل الأمم، ماضيها وحاضرها، ولذلك أسهمت، وما تزال، في تقدّمها كل الشعوب. ولعلّ الترجمة قامت، وما تزال، بحفظ القسم الأكبر من هذه العلوم والمعارف كونها، أي الترجمة، عملية إبداع دقيقة. ومن هنا يمكننا القول إن المترجمين العرب في العصور الوسطى قد أسهموا مساهمة كبيرة في تطوير المعرفة والعلوم وحفظهما من الزوال. و في هذا الصدد تقول الباحثة Maria Rosa Menocal ماريا روزا مينوكال (2005): «في حين كان الأمويون في كلّ من دمشق و قرطبة متعطّشين للثقافة والتمازج الثقافي، إلا أنّ عباسيي بغداد هم من قاموا برعاية مشروع الترجمة الذي استمر أجيالاً، إذ قاموا بترجمة جلّ الأعمال اليونانية الفلسفية والعلمية التي كان من الممكن أن تضيع إلى الأبد لولا هذا المشروع».

لقد ازدهرت حركة الترجمة إلى اللغة العربية (التعريب) في العهد العباسي، حيث غدت مهنة راسخة ومستقلة، ففي عام 832 م قام الخليفة العباسي المأمون ابن هارون الرشيد بتأسيس (بيت الحكمة) لترجمة مختلف الكتب العلمية و الفلسفية من لغات حيّة في ذلك الوقت إلى اللغة العربية. ومما شجّع المترجمين على القيام بأعمال الترجمة إلى اللغة العربية هي الحاجة إلى المعرفة على صعيدهم الشخصي، وتشجيع حكّامهم لهم الذين كانوا يسعون إلى تأسيس دولة قويّة مسلّحة بالعلم و المعرفة. وبدأ المترجمون مهنتهم الجديدة في بغداد، عاصمة الخلافة العباسية آنذاك، بحماس ودأب لا مثيل لهما على الإطلاق. وكما هو الحال مع كلّ حركة فكرية، أخذت حركة الترجمة هذه بالانحدار رويداً رويداً، وفقاً لمبدأ العرض والطلب وقلّة المادّة العلمية المترجمة.

أولاً: دور القرآن والسنّة

في البداية، لا بد لنا من الجزم بأنّ عطش الإنسان المعرفي كان، ولا يزال، القوة الدافعة لتحقيق التقدّم والازدهار. وفيما يتعلّق بالمسلمين فإنّ طلب العلم واجب على كلّ مسلم ومسلمة. وفي الحقيقة، يحثّ كلّ من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة المسلمين على طلب العلم واكتسابه بغض النظر عن طبيعة هذا العلم، دينية كانت أم دنيوية. ففي القرآن الكريم يقول الله تعالى في سورة الزمر، الآية رقم (9) :

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾

كما ويروي البيهقي والترمذي عن محمد ﷺ أنه قال: (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة).

ومن ثم لا عجب أنّ هذه الأدلة من القرآن والسنّة على فضل العلم واكتسابه قد دفعت المترجمين العرب في العصور الوسطى إلى السعي لاكتساب المعارف والعلوم عن طريق الترجمة. علاوة على ذلك، فقد جاءت الترجمة كحاجة ملحّة لعرب العصور الوسطى لأنهم كانوا بحاجة إلى أن ينهلوا من العلوم الأخرى كالفلسفة والطب والفلك وغيرها. ومما أسهم في رواج حركة الترجمة وازدهارها هو قدوم صناعة الورق التي جاءت من الصين إلى بغداد، ومن بغداد وصولاً إلى الأندلس حيث انتقلت من الأندلس إلى الغرب وأوروبا.

ثانياً: دور الخلفاء العباسيين

العامل الثاني الذي أدى إلى نجاح حركة الترجمة العربية في العصور الوسطى يكمن أيضاً في الدعم المادي الكبير الذي حظي به المترجمون في بداية عملهم من قبل الخلفاء العباسيين، وهذا بدوره جعل مهنة الترجمة عملاً مربحاً ومهماً في الدولة العباسية، وبذلك تشجّع العلماء والمترجمون على مزاولته مهنياً. فعلى سبيل المثال، كان الخليفة العباسي هارون الرشيد يرسل العلماء إلى شتى أصقاع العالم بحثاً عن العلم والمخطوطات. وفيما بعد، جنّد ابنه المأمون أفضل العلماء والمترجمين للقيام بهذا المشروع، الذي يهدف إلى نشر العلم والمعرفة، وتكلل هذا الجهد بإنشاء (بيت الحكمة). ومنح المأمون في أثناء خلافته المترجمين أعلى المناصب في البلاط تكريماً وتقديراً لجهودهم الحثيثة في إثراء التراث الإسلامي والعربي بفروع المعرفة الجديدة آنذاك. وفي هذا الخصوص يعلّق الباحث ديمتري جوتاس Dimitri 1998 (Gutas) قائلاً: «في أوائل الخلافة العباسية مُنح المترجمون مناصب إدارية عالية في البلاط، وتلقوا الدعم السياسي والمادي للقيام بهذا العمل». (1998:الصفحة 54)

إذاً، فقد قدّم الخلفاء العباسيون لحركة الترجمة هذه كل الدعم المعنوي والمادي للحفاظ على دولتهم قوية ومعاصرة قدر الإمكان، لأنهم أدركوا أهمية المعرفة والعلوم في جعل دولتهم قوية وعظيمة. و لذلك غدت أمة الإسلام قوية مسلحة بالعلم والمعرفة بفضل ترجمة أشهر كتب علماء اليونان وفلاسفتهم. وهنا تقول آن آشفورد Ann Ashford(2004): «برزت حركة الترجمة في بغداد في القرن التاسع الميلادي نتيجة حاجة الحكّام إلى إمبراطورية قوية. وقد كانت شبكات التواصل التجارية التي لعبت دوراً أساسياً في نمو الإمبراطورية الإسلامية وتطورها كفيلة بحمل الأفكار الجديدة إلى كل أرجاء العالم».

ثالثاً: دور المترجمين و الباحثين

بالإضافة إلى ما سبق ذكره من عوامل أدّت إلى ازدهار حركة الترجمة والتعريب في العهد العباسي، لا بد لنا أن نذكر أن هذه الحركة بلغت ذروتها وأوجها بفضل الجهود الكبيرة التي بذلها المترجمون والباحثون في تلك الحقبة من الزمن.

وهنا نذكر على سبيل المثال لا الحصر مفكرين بلغت شهرتهم العالم كلّه، ماضيه وحاضره، أمثال حنين بن إسحاق والكندي وابن سينا وابن رشد والفارابي والرازي وغيرهم من علماء العهد العباسي ومترجميه، ممن كان لهم الأثر الكبير ليس فقط في حركة الترجمة في العصور الوسطى فحسب، بل في اكتشافات علمية بارزة تم التوصّل إليها في الغرب وأوروبا فيما بعد بفضل ترجماتهم وأبحاثهم.

لم يكن هناك أي شيء آخر سوى تعطّش هؤلاء العلماء والمترجمين للمعرفة ومهنيتهم ما أوقد في نفوسهم جذوة الحماس، التي جعلتهم يقومون بهذا العمل الشاق والمحفوف بالتحدي والمصاعب. ولذلك ينبغي للعالم كلّه حقاً أن يعترف على الملأ بالحقيقة الثابتة، وهي أنه دون جهود مترجمي العصور الوسطى العرب وأعمال علماء تلك الحقبة من الزمن لما تمكّن العالم اليوم من بلوغ هذا التقدم التكنولوجي على الإطلاق. وفي هذا الخصوص يقول جاتسون فيت Gatson Weit)1973): «لم يكن هناك نقص في الرجال الموهوبين. فقد كان التدفق على بغداد هائلاً جداً كسرعة الخيّالة في أنحاء المعمورة كلها خلال الفتح العربي. أما علماء بغداد و مفكروها فقد شرعوا باكتشاف الأفكار القديمة (اليونانية والرومانية)».

رابعاً: أهم عوامل انحدار حركة الترجمة

وكما هو الحال مع كل حركة إنسانية فكرية كان على حركة الترجمة العربية في العصور الوسطى، والتي دامت قرابة قرنين من الزمن، أن تتلاشى وتنتهي. في الحقيقة، بدأت حركة الترجمة بالتراجع تدريجياً ليس بسبب تناقص عدد المترجمين المحترفين، أو بسبب قلّة الدعم المادي ولكن بسبب عدم وجود أعمال وكتب مناسبة يمكن ترجمتها، إذ إن معظم كتب الطب والفلك و الفلسفة كان قد تم ترجمتها إلى اللغة العربية آنذاك.

وفي هذا الخصوص يعلّق ديمتري جوتاس (1998) قائلاً:«لم يكن هنالك ما تقدّمه (حركة الترجمة) ليس بمعنى أنه لم تكن هناك كتب يونانية دنيوية يمكن ترجمتها، بل بمعنى أنه لم توجد هناك كتب يونانية أخرى تقدمها الحضارة اليونانية على صلة وثيقة باهتمامات ومتطلبات كل من الباحثين والعلماء والمترجمين ورعاة الترجمة على حد سواء». (1998:الصفحة 152)

بالإضافة إلى ذلك، أضحت اللغة العربية في ذلك الوقت اللغة المهيمنة، كما توفّرت أيضاً أهم الكتب العلمية والفلسفية باللغة العربية توفّراً غزيراً. و بعبارة أخرى، كان دور اللغة العربية في أن تكون بؤرة الاهتمام والبحث العلمي، أي أن يتم ترجمة اللغة العربية وعلومها وثقافتها إلى لغات حيّة أخرى في ذلك الوقت. ومن جديد يعلّق ديمتري جوتاس (1998) على هذه النقطة قائلاً: «توقفت حركة الترجمة أو انتهت لأن البحث العربي الفلسفي والعلمي الذي أوجد الحاجة إلى حركة الترجمة منذ البداية قد أصبح الآن مستقلاً (عن فلسفة الشعوب الأخرى و علومها)». (1998: الصفحة 152)

الخاتمة

وأخيراً يمكننا أن نقول وبكل ثقة: إن حركة الترجمة العربية في العصور الوسطى أسهمت في العلوم والمعارف الإنسانية وأثرتها أيضاً. فقد حثت مصادر التشريع الإسلامي الأساسية المتمثّلة في القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة المترجمين العرب في العهد العباسي على السعي لاكتساب المعارف والعلوم، كما تم الإشارة إليه سابقاً. كما أن الخلفاء العباسيين أظهروا إعجاباً وشغفاً بالعلم والمعرفة، وترجموا هذا الإعجاب والشغف إلى فعل حقيقي، عندما تبنّوا ودعموا وأشرفوا أيضاً على عملية الترجمة بأنفسهم، فهم أي الخلفاء العباسيين، لم يدعموا المترجمين في عملهم الصعب دعماً مادياً فحسب، بل منحوهم منازل مرموقة في إدارة الدولة. وبالطبع لولا وجود علماء ومترجمين متمكّنين لما كان بالإمكان الشروع بأي مشروع ترجمة على هذا المستوى. وعندما أصبحت اللغة العربية لغة بارزة وسائدة في تلك الحقبة ومع تناقص المصادر التي ينبغي ترجمتها أخذت حركة الترجمة العربية في العصور الوسطى بالاضمحلال رويداً رويداً إلى أن انتهت.

﴿لم يكن هناك أي شيء آخر سوى تعطّش هؤلاء العلماء والمترجمين للمعرفة ومهنيتهم ما أوقد في نفوسهم جذوة الحماس التي جعلتهم يقومون بهذا العمل الشاق والمحفوف بالتحدي والمصاعب﴾

الأعمال الأدبية
بين تقديم أجوبة عن أسئلة قرائها وتأجيلها

بقلم: د. رشيد وديجى

الكلية المتعددة التخصصات

الرشيدية/ المغرب

إن قيمة العمل تكمن في الواقع الذي ينتجه ذلك العمل، وكذا من خلال تفاعله التاريخي مع قرائه المتعاقبين، هذا التفاعل هو الذي يبرز غنى الأثر الأدبي، ومدى قدرته على الاستمرارية من خلال الإجابة على الأسئلة الراهنة والمحتملة.

فقيمة العمل الأدبي تبقى رهينة بالقارئ وتفاعله مع هذا العمل، على اعتبار أن كل نص أدبي جديد، ومهما بلغت جدته تتعايش داخله معايير جمالية قديمة وأخرى حديثة، فأفق التوقع السائد لا يمكنه أن يكون ثابتًا ومشتركًا بين جميع القراء، لأنه إدراك نسبي يتمظهر بطرق مختلفة حسب الشروط الثقافية والتاريخية، وحسب المناخ السياسي والاجتماعي للذات المدركة.

إن النص الأدبي يحمل في طياته إجابات عن أسئلة ماضية وأخرى آنية، باعتبار أن إعادة تشكيل أفق التوقع للجمهور الأول لا تكمن فقط في قياس المسافة الجمالية، ولكنها تكمن أيضًا في استخلاص الأسئلة التي أجاب عنها النص في الماضي مع الأخرى التي أجاب عنها في الحاضر قصد إبراز الاختلاف التأويلي في فهم الأثر الأدبي بين الأمس واليوم، هذا يعني أن النص الأدبي لا يحمل في داخله معنى جوهريًا خالدًا، و أنه ليس كتلة جامدة، ولكنه كيان حيوي متجدد بتجدد أسئلتنا الموجهة إليه وبتجدد إجاباته على الدوام، فكل نص أدبي هو جواب عن سؤال تقديري لقارئ مفترض، ويبقى هذا السؤال مشروط بمجموعة من الشروط التي أحاطت بالقارئ وقت طرحه لهذا السؤال إلا أن الاختلاف يكمن في الأجوبة، حيث نجد نصوصًا تتغير إجاباتها بتغير واقع قرائها، فتقدم بذلك أجوبة متعددة تجيب على راهنية السؤال، فمثلاً: النصوص الملحمية نموذج (الإلياذة) و (الأوديسة) قدمت أجوبة لأسئلة الإنسان الإغريقي المحمل بالفكر الديني والميثولوجيا والمتجذر في الواقع اليوناني، لهذا كانت أجوبة هذه النصوص مقنعة لمتلقي يبحث عن النفس الدرامي، وتعدد الآلهة، ويؤمن بقداسة الأبطال المخلصين و الممدنين.

أما إذا رجعنا إلى تلقي هذه الأعمال في الثقافة الغربية، سنجدها تقدم إجابات أخرى مخالفة نظرًا لطبيعة السؤال المقدم إليها، فمتلقي هذه الأعمال يبحث فيها عن الجمالية الشعرية كون الإنسان الغربي في حقبة ما بين الحربين بدأت تشغله قضايا إنسانية جديدة شرع يبحث لها عن إطار فوجده في الدراما والميثولوجيا الإغريقية.

وأما إذا عدنا إلى تلقي هذه الأعمال في المجتمعات العربية الإسلامية، فالأمر سيختلف حتمًا فلا مجال هنا للحديث عن موضوعات كبرى: الإله، والقضاء والقدر، والعدالة الإلهية، والأخلاق... لأن طبيعة المتلقي العربي الإسلامي وخصوصياته لا تسمح بالتعدد في الآلهة، ولا بعبثية القدر والقضاء إذا نتحدث هنا عن مجموعة من الطابوهات، لهذا جاءت مساءلة هذه الأعمال من جوانب مختلفة، حيث كان البحث عن إجابة مخالفة ارتبطت بالواقع العربي وهزاته، ونكباته، وإحباطاته الفكرية والثقافية، وقد نجد أن بعض الأعمال الأدبية لا تلقى اهتمامًا، لأنها لم تقدم أجوبة عن أسئلة قرائها وقت صدورها، بل أجلت هذه الأجوبة إلى وقت لاحق.

وهكذا، سيبقى قارئ هذه النصوص مؤجلاً إلى أن تجيبه هذه النصوص عن أسئلته، أخذًا بمسلمة أن كل نص هو جواب عن سؤال، فالسؤال قد يكون قراءة جديدة، وإعادة فهمه وتأويله.

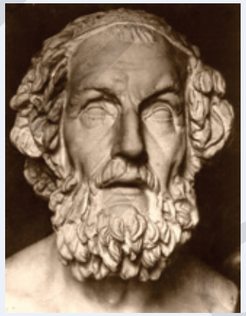

هوميروس

> «إن النص الأدبي يحمل في طياته إجابات عن أسئلة ماضية وأخرى آنية، باعتبار أن إعادة تشكيل أفق التوقع للجمهور الأول لا تكمن فقط في قياس المسافة الجمالية»

مجددًا أنا وليلى!

بقلم: عماد أحمد العالم

يقولون: ليلى في العراق مريضةٌ؛ فيقول يا ليتني كنت الطبيب المداويا....

هي ليلى مجدداً التي أتحدث عنها وأجعل منها رمزاً خصصته، ليكون أيقونة العشاق من الرجال المحبين والمصابين بجنون الهوى، الذي لا يعرف الحدود والفواصل، فهوى أنفسهم أقوى من أن تحجر عليه ظروف قاهرة، على الرغم من أنها الظروف نفسها التي ستنجح يوما في منعهم من تحقيقهم مرادهم ونيلهم ود محبوبتهم وخطفهم لها؛ ولن أقول: على حصانٍ أبيض، فتلك رؤى باتت مستهلكة، ولا تعبر عن جموح عاشق ومحبة لم يكن الحظ يجاورهما أو يمر بجانبهما، لينالا وداً تمنيا أن يجمعهما سويةً.

ليلى الأنثى هي واحدة كاسم، وإن تعددت مسمياتها وأزمان تواجدها. من العامرية ليلى التي تصغر عاشقها قيس بأربعة أعوام، وولدت في بلدة اسمها النجوع وتسمى اليوم باسمها، والتي هي عاصمة محافظة الأفلاج بمنطقة الرياض. تربت مع قيس ورعيا الغنم سويةً، فلما كبرت حجبت عنه فأزداد هياماً بها، ورفض أهلها أن يزوجوها به ليس لأنها غنية وهو فقير كعادة المسلسلات العربية، وإنما لاشتهار حبهما بين العرب، فهام المسكين على وجهه ينشد الأشعار، ويتغنى بحبها إلى أن وجد ملقى بين أحجار وهو ميت فيها، ومما قال أذكر يائيته التي أورد بعض أبياتها:

أَعُدُّ اللَيـالـي لَـيلَـةً بَـعـدَ لَيلَة
وَقَد عشتُ دَهراً لا أَعُدُّ اللَياليا
وَأَخـرُجُ مِـن بَينِ البُيُوتِ لَعَـلَّنـي
أُحَدِّثُ عَنك النَّفسَ بِاللَيلِ خاليا
أَراني إِذا صَـلَّـيتُ يَمَّمتُ نَـحـوَهـا
بِوَجهي وَإِن كانَ المُصَلّى وَرائيا
وَمـا بِـيَ إِشـراكٌ وَلَكِـنَّ حُـبَّـهـا...
وَعُظمَ الجَوى أَعيا الطَبيبَ المُداويا
أُحِبُّ مِـنَ الأَسماءِ ما وافَقَ اسمَها
أَوَ أَشـبَـهَـهُ أَو كانَ مِـنـهُ مُـدانيا
إِذا اكتَحَلَت عَيني بِعَينِك لَم تَزَل
بِخَيرٍ وَجَـلَّت غَمرَةً عَن فُؤادِيا
هِيَ الـسِّـحـرُ إِلّا أَنَّ لِلسِّحرِ رُقيَةً
وَأَنّيَ لا أَلـفـي لَهـا الدَّهرَ راقِيا
عَلى مِثلِ لَيلى يَقتُـلُ المَرءُ نَفسَهُ
وَإِن كُنتُ مِن لَيلى عَلى اليَأسِ طاوِيا

حاول والده كما يُقال أن ينسيه محبوبته، فأخذه لمكة، فما كان من العاشق الولهان أن تعلق بأستار الكعبة و قال:

اللهم زدني بليلى حبًا و بها جنونًا
و كلفا ولا تنسني ذكرها أبدا

في زمن آخر وفي قصيدة مصطفى محمود التي لا تنسى (الليل ياً ليلى) كانت ذكرى ليلى مسائية، يعاتب المساء فيها محُبًا ويسأله عن ليلى، فيما طيور باحته تفتقد ليلى وذكراها، وتسأل المحب لها عن حالها، أو يا تُرى إن كانت قد سافرت ليلى....! يعود بعدها وبمدة حسن المرواني ليحكي لنا قصة (أنا وليلى) التي عذبت محبها بعد أن تركته يعاقر حزنه الذي يعصره في مغبر آهاته...هي ليلى الاسم نفسه ولكنها ليلى أخرى فاتنة بشفاهٍ مختلفة مكتنزه، ظن معشوقها أن رحيقها سيكون من نصيبه، لكن ضعف الحال أو قلته كانت سبباً لتكون ليلى من نصيب غيره من الرجال الذين تمتلئ جيوبهم بما يزغزغ عيون أي ليلى ويجعلها تؤثر راحتها على نيل قلب محبوبها!

اسم ليلى لمن لا يعرف معناه، يعني نشوة الخمر أو بدء السكر أو النشوة. وأم ليل هي الخمر السوداء. وقد يكون الاسم المختوم بالألف الممدودة دالاً على الليلة الواحدة، فيكون أصله (ليلة)، وعلى هذا المعنى نُقل الاسم إلى الإنكليزية.

يبدو أن اسم ليلى ارتبط لدى المحبين بالشقاء والعذاب، فكل محبي ليلى أو على الأقل من تداعوا لمسامعنا تجرعوا مرارة الهوى وحسرة الفراق وألم البعاد؛ لكنهم وفي الوقت نفسه ودون أن يعوا قد تركوا لنا تراثاً شعرياً يحببنا بليلى وكل ما يمت لليلى. فقيس العاشق العظيم الذي اتهموه ظُلماً وبُهتاناً بالجنون، وقد كان عاقلاً مُخلصاً في حبه ذاق من هوى ليلى ما كفل له المرارة أن تكون مزامنة لاسمه كلما ذُكر، والشاعر المرواني وكما يُقال (وقد يكون إشاعة) قرض قصيدته بعد تجربته الشخصية التي مرّ بها، ويُقال أيضًا: إن ليلى الحقيقية محبوبته قد بكت حين استمعت لها في الأمسية الشعرية التي قرأ بها القصيدة!

طبعاً قد يكون هذا القول أو تلك القصة من نسج خيالنا الذي يرى في لوعة الحب إحساساً أجمل من الحب ذاته؛ لكن إحساسي يقول لي دوماً أن الليل وليلى مرتبطان ومتلازمان وبينهما عهد من عهود الهوى الغير المعلن، ولهما وقعٌ وهاجسٌ في نفس المُحب، وإن لم يكن من العدل حصر الهوى بليلى، إلا أني أجد أنها «أي ليلى» أسعدتنا برمزية الحب لها وأن كانت قد لوعت محبيها..

> «يبدو أن اسم ليلى ارتبط لدى المحبين بالشقاء والعذاب، فكل محبي ليلى أو على الأقل من تداعوا لمسامعنا تجرعوا مرارة الهوى وحسرة الفراق وألم البعاد»

قصيدة الحمامة للشاعر السوري أنور العطّار

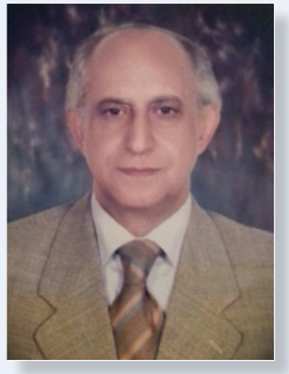

هاني أنور العطار

كأني بشاعر دمشق وغرّيدها المفَن أنور العطار رحمه الله يعبر عن أحزان أهل الشام اليوم لمفارقتهم الوطن وتشردهم في البلدان وذلك على لسان حمامة نائحة في قصيدته البديعة الحمامة التي يناهز عمرها السبعين عاماً ونيفاً، وهي من ديوانه (ظلال الأيام) الصادر في دمشق عام 1367هـ / 1948م والذي أعيدت طباعته في عام 1434هـ - 2013م في الرياض.

وفي أحد عشر بيتًا شعريًا لخص الشاعر أنور العطّار في قصيدته هذه وفي نبوءة عجيبة آلام أهل الشام في يومنا هذا على لسان حمامة نائحة من بنات الهديل، وهي تودع بستانها، و بلسان المجهول الغائب يروي لنا بأن الحمامة، و هي هنا كناية عن كل سوري لم تجد من يسمع آلامها إلا بستانها، وهنا الرمز للبستان إلى سورية جمعاء ...

وفي الأبيات الثلاث الأخيرة، نرى الشاعر أنور العطّار يشير إلى سبب كل هذا الألم، ويتساءل؟ هل زمر القانصين الذين جاؤوها من كل حدب وصوب.

خطّ هذه القصيدة بريشته المبدعة على ورق البردي المذهّب الفنان المصري الحاذق (طاهر عبد القادر عمارة) خطاط مصحف الفيصل..

وكل الشكر للعلامة النبيل الوفي د. يحيى محمود ابن جنيد الأمين العام لمركز الملك فيصل للدراسات الإسلامية.

بطاقات

شعر: محمود أسد

سوريا - حلب

.1
كلَّ عام أسكبُ الشوقَ
و أرمي زهرةً قبلَ حضوري
للمقابرْ
ثمَّ أبكي مُسْتحمًّا
بحديثٍ أو رسالات
مضَتْ عَنْها عقودٌ
لم تُسافرْ..

.2
كلَّ يومٍ أسمَعُ الصوتَ
أنيناً.
أستدينُ الحزنَ
أسعى بانكسارٍ و هسيسٍ
صوبَ قلبٍ
قد أتاني مُستبيحاً
كلَّ أركانِ فراغي
زارعاً بعضَ المواجعْ..

.3
كلُّ أيامي
و ساعاتُ انتظاري
تحتويني في زوايا الهجرِ
و الوجهُ حزينٌ
و صديقي يَسْتَغِلُّ الدفءَ
و الحبَّ أمامي.
يَشْتهيني للمكائدْ
أجْمَعُ الحبَّ و أرويهِ
و أبقى ظامئاً
تحرقني ريحُ همومي..

.4
كنتُ شخصين
و كنَّا في هدوءٍ
نتغنَّى ، أتلوَّى
قَذَفَتْنا نظرةٌ قبلَ الحوارِ..
كان يحكي
كنْتُ أُصْغي.
كنْتُ أشكو
كان يمضي ،
مُقْلتانا في احتراقٍ ،
أخذَ العمرُ صديقي
فأتى يحملُ جاهاً
و مضى دون التفاتهْ..

.5
هرَّةٌ قد لكزَتْني
لم تقلْ . عفواً
و لم تبدِ انزعاجاً
و كأنِّي قطعةٌ
قبلَ رحيلِ الوقتِ
فتَّشْتُ طويلاً
في ثقوبِ القلبِ
راحتْ منْ زمانٍ
غيرَ أنِّي لم أزلْ في وجعٍ
منذ الفراقِ..

.6
قبلةٌ نامَتْ
على أرصفةِ العمرِ
كعصفورٍ يبيعُ الخوفَ صيفاً
ثمَّ يحبو في احتراقٍ
لرمادِ الوقتِ
و الجمرُ لسانْ
قيَّدوهُ بالمخاوفْ..

.7
نشرةُ الأخبارِ ضاعَتْ.
بعضُهُمْ قال: ابحثوا عنها
فإنَّ الوقتَ يمضي
و عيونُ الناسِ غامتْ..
بعضُهمْ قال: أعيدوا
نشرةَ الأمسِ
و بعضٌ قال: ماتَتْ
قال طفلٌ: لا أريدُ الموتَ
إنْ حلَّ حُرِمْتُ الأمْنَ
غابَتْ عن عيوني
ضحكةٌ بين الدفاترِ

.8
عادَ حزني ببريدٍ
نامَ دهراً
عادَ قلبي مُفْلساً
يحملُ زاداً منَ نُعاسٍ
يركبُ الخوفَ، و يُعْطي
نَزْفَ عينٍ
داهَمَتْها تركاتٌ منْ قبائلْ..
عُدْتُ للنفسِ حسيراً
عُدْتُ مخموراً
فكانتْ تغزلُ الدمعَ
و ترمي شالَها فجراً
و تجري للبيادرْ..

.9
خرجَ الطفلُ بعيداً
أطلقَ الضحكةَ
و اصطادَ فراشاتٍ ،
جرى خلفَ كنارٍ
فإذا بالذئبِ ينقضُّ سعيداً
سارقاً بَسْمَتَهُ
ثمَّ الفراشةْ..

.10
بيتُهُ كان بعيداً و بسيطاً
ربَّما كان وضيعاً.
بسمةُ الأولادِ و الأمّ
و شيءٌ منْ صفاءٍ
و كثيرٌ منْ قناعةْ.
قد أحالَتْهُ نعيماً و رياضاً
يسكنُ الحبُّ على الرملِ
و تشدو فوقَهُ
آلامُ طفلٍ
و عدوهُ بالإمارةْ..